

الصهيونية والعنصرية ملاحظات عن التطورات الجديدة

العربي . ومنذ صدور الكتيب الذي وضته عن هذا الموضوع ظهرت كثير من العناصر الجديدة التي اضيفت الى ملف المسألة ، ويؤكد القضايا التي عرضها الكتاب ، وهي ان التطور الثوري التعاون - الاقتصادي والعسكري (الذي يشمل المجال النووي) والاستراتيجي - بين برسيوريا وتل ابيب يقوم - في هذه الحالة - على تضارب عميق على مستوى تاريخ النظامين وبنيتيهما ، وكذلك تضارب بين التناقضات وانطرق السدودة التي يواجهانها ، والوسائل التي يزمعان بها الخروج منها : زيادة ظهر السكان الخاضعين لهما ، وكبت المعارضين ، ومحاولات تقسيم حركات التحرير والقوى التي تؤيدها ، واللجوء المتزايد الى مساعدة الدول الامبريالية ، واللجوء الى الحروب الوفاائية (عن طريق « حق الملاحقة ») والابتزاز باستخدام الاسلحة النووية التي توحد الحكومتان جهوهما في صنعها .

وقد اصدرت الامم المتحدة مؤخرا وثيقة ضخمة عن قضية هذا التعاون متعدد الاشكال ، تفيدنا في ان تلقي الضوء على النصوص التي سبق اصدارها .. وبرزت ندوة هافانا في ايار - حزيران الماضي ، ومؤتمر دول عدم الانحياز في كولومبو الذي يمثله هذا التعاون ، الذي يزيد من اهميته زيارة فورستر رئيس وزراء جنوب افريقيا لاسرائيل في تيسان الماضي ، والاتفاق الذي عقد بهذه المناسبة . واذا كانت الصحف الغربية الكبرى قد اكتفت بابداء بضع ملاحظات على استحياء في هذا الشأن فان البرافدا والمؤتمر الوطني الافريقي قد نندا بوضوح :

« .. بهذا التواطؤ الموجه ضد حركات التحرير العربية والافريقية » واكدا ان « الدولة الصهيونية تهتم بوجه خاص بشحنات المواد الأولية من برتوريا بما في ذلك اليورانيوم ، الامر الذي يعني بوضوح بلل جهود مشتركة حقا بين الصهاينة والعنصرين في جنوب افريقيا لصنع الاسلحة النووية »

ولنذكر دون ان ندخل في عرض واسع للارقام - ان قيمة صادرات اسرائيل الى جنوب افريقيا - وفقا للارقام التي اصدرتها الاسم المتحدة - قد تضاعفت الى ثلاثة امثاليها فيما بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ ، في حين ان قيمة الواردات الاسرائيلية من جنوب افريقيا قد ارتفعت في الفترة نفسها من ٣٤٤ مليون دولار الى ٢٢ مليون دولار . وقد ارتفع معدل الزيادة هذا فيما بعد ، واكثرن بهم

كانت الطريقة التي استقبل بها الغرب قرار الامم المتحدة بادانة الصهيونية كشكل للعنصرية والتمييز العنصري - وهو قرار لا يبدو ان يكون مجرد اثبات للواقع - شاهدا على الحصار الذي ما زال يحول بين الرأي العام في بلدنا واجراء تحليل صحيح لوضع لا يمس الهدوء والتطور في منطقة واحدة فحسب وانما يمس سلام العالم كله .

فلقد كان رد فعل معظم الناس في هذه المناسبة - وحتى بعض مؤيدي القضية العربية - يتسم بالانفعال .. وبدلا من ان يفكروا في الامر ، ويتاملوا ملف المسألة بامعان ، اكتفوا بابداء سخطهم متسائلين : « كيف يمكن لليهود ان يكونوا عنصريين وهم انفسهم من صحايا العنصرية ؟ » .

وتتيح لنا ردود الفعل السطحية هذه ان نقيس مدى نقص المعلومات لدى الغالبية العظمى ، ومدى تأثير ومهارة الدعاية الصهيونية التي تنشرها وسائل الاعلام على كل المستويات ، بل كذلك وجود نوع من المحذور (التابو) ما زال متشبثا بمقبول مواطنينا - وبشكل اوسع عقول ابناء اوربا الغربية والولايات المتحدة - بمنهم من ان يدرسوا بموضوعية كل ما يمس الدولة اليهودية .

ان عددا كبيرا من المتحدثين قد قدموا - وسيقدمون - لهذه الندوة عناصر قيمة تسهم في الاجابة على الاسئلة المطروحة علينا جميعا ، وستتناول كلمتي اسلما بعض الوقائع التي يبدو انها قد ساعدت على تطور الرأي العام تطورا مواتيا في الفترة الاخيرة ، في اتجاه تفهم افضل لطبيعة الصهيونية وما تمثله من اخطار . وسائير هذه الوقائع من زاويتنا نحن في فرنسا ، وبالعبارة التي ينبغي ان نستعملها كي يفهمنا مواطنونا ، حتى نلقي الضوء على الواقع الذي بجمعنا اليوم في بغداد .

ولما كنت - في الوقت نفسه - عضوا مسئوليا بجمعية التضامن الفرنسي العربي - التي تهتم بشكل خاص بالمشكلة الفلسطينية - وامينة اللجنة الفرنسية المناهضة للابارتهايد فقد استرعت اهتمامي منذ وقت طويل تلك الصلات المتعددة بين النظامين العنصريين في هاتين المستعمرتين الاستيطائيتين « اللتين فرست احدهما في جنوب افريقيا والاخرى في قلب الشرق الاوسط

هياكل نظام التبادل : عن طريق اقامة الغرف التجارية والشركات المختلطة والاتفاقيات المصرفية تزيادة حجم الاستثمارات في كـلا الاتجاهين .. الخ وهو اجراء ينبغي ان نبرز انه قد اخذ في عام ١٩٧٢ اثناء مؤتمر المليونيرات الذي يوصي بان تستخدم شركات جنوب افريقيا اسرائيل للالتفاف حول العقوبات التي تفرضها الدول الافريقية على منتجاتها .

وقالت صحيفة الجارديان في ٢ حزيران ١٩٧٢ :
« تمثل اسرائيل قاعدة مفيدة جدا لشركات جنوب جنوب افريقيا التي لا تستطيع ان تباع منتجاتها مباشرة الى افريقيا » .

وفي عام ١٩٧٢ قامت اول بعثة دبلوماسية لجنوب افريقيا في تل ابيب ، وفي اذار ١٩٧٤ رفع وزير الخارجية الاسرائيلية مستوى التمثيل الاسرائيلي في جنوب افريقيا الى درجة السفارة . وعلى اثر هذا الفرار نستطيع ان نقرأ في صحيفة معاريف (١٤ اذار ١٩٧٤) اقوالا ذات نغمة عنصرية لا لیس فيها :

« اود ان انتزه هذا الظرف السعيد لاتحدث صراحة عن بضع حقائق .. فاليوم وقد ادارت لنا الدول الافريقية السوداء ظهرها .. فاننا في حل من ذلك الكتمان الذي راعيناه حتى الان .. واني لاشعر بالارتياح اذا ما قلت ما سكتنا عنه لاسباب دبلوماسية : ان مشهد غالبية الدول الافريقية يثير النفور » .

وبعد حديث عن « الفوارق الاساسية والوراثية » التي تفصل بين الشعوب يختم الكاتب حديثه قائلا :

« صدقوني ، لو ان لي الخيار بين الصداقة مع افريقيا السوداء ... والصداقة مع امة بيضاء تعرف النظام والرخاء وتعيش فيها طائفة يهودية مزدهرة لاخترت جنوب افريقيا » .

ولما كان النظام والازدهار في بلاد الابارتهد يتعرض حاليا للخطر امام تصاعد نضال الجماهير الافريقية المجهورة فان الارتياح المعلن لتضامن يعترف الطرفان بانه يستند الى موقف موضوعي متشابه قد اخطى المكان لقلق لدى المعلقين الاسرائيليين ، وهو قلق يعكس قلق يهود جنوب افريقيا المساكين الى مواجهة الهجرة - والذين لا يلبو انهم على استعداد كبير للهجرة الى اسرائيل .. ولكنه على وجه الخصوص فاق امام « صلة القرابة » التي يراها الرأي العام العالمي بشكل متزايد سن النظم الثلاثة في برنوربا وساليسجوري وتل ابيب . وهناك مقال اخير بعنوان « الحل الروديسي : خطر على اسرائيل » يفصح بجلاء عن هذا الامر . فخوفا من تشبيه اسرائيل - كنولة المستوطنين الروديسين - بجسم غريب في المنطقة يوصي الكاتب رجال الدعاية الاسرائيلية بالتشديد على ان :

« من المناسب ان نجري تمييزا واضحا بين وضع الدولة اليهودية ووضع دولتي البيض في افريقيا الجنوبية » وان يشتوا دون كلل « انه لا يمكن المقارنة بآية طريقة بين تاريخ اليهود في بلد ينتمي لهم ، وتاريخ المستوطنين في جنوب افريقيا وروديسيا .. » وهو يتضح بان يبنوا استمرارية العلاقات التي تربط يهود العالم كله بارض اسرائيل محاولين ان يسدوا فراغ الذي لا يراها المرء في سلسلة هذه العلاقات ويني عليه اله رب حججهم ضلنا » .

وينبغي اكثر من ذي قبل الا نتراخي بشأن هذه المسألة نظرا للوضع الذي يتطور بشكل خاص بين زيمبابوي وموزامبيق . فقد عرفنا منذ بضعة ايام ان الغارات الجوية على اراضي موزامبيق قد ادت الى مصرع مئات من المناضلين الافريقيين .. وفي اب الماضي كانت صحيفة « يدعون احرنون » الاسرائيلية قد اعلنت انه :

« منذ عملية عنينية تصفط المنظمات الخاصة التي تعمل في جنوب افريقيا وروديسيا على وكالات تجنيد المرتزقة في بريطانيا لتجنيد جنود اسرائيليين .. ويمكن لمن يتولوا مهام القيادة والتدريب

ان يحصلوا على عشرة الاف ليرة اسرائيلية شهريا . وتعترم الادارات المختصة نشر اعلانات في الصحف الاسرائيلية تقترح فيها اعمالا جذابة على اولئك الذين يشغفون بالقتال .. »

ولا بد ان يكون اسهام اسرائيل في اعمال المرتزقة الذين يساعدون القوات الاستيطانية وانضصرة في افريقيا الجنوبية قد اتضح هنا .

وكان العامل الثاني الذي دفع الرأي العام الغربي الى التطور منذ العام الماضي هو بالتأكيد تصاعد المقاومة الفلسطينية في الاراضي الخاضعة للاحتلال العسكري في الضفة الغربية من الاردن وغزة والقدس - وموجة المظاهرات التي اثارها الاجراءات الاخيرة لنزع ملكية الاراضي العربية في اسرائيل في اطار « تهويد الجليل » . ولقد اثار القمع الوحشي ضد المتظاهرين الذين كانوا يريدون الحفاظ على احد الحقوق الاولية من التعليقات وسيول الانباء ما دفع الناس الى التساؤل : « لماذا مثل هذا الاصرار على احتلال ارض الاخرين ؟ .. ولماذا يستمر نزع الملكية ؟ » . ويكون من المنطقي ان يطرح السؤال الذي يمثل جوهر المشكلة : ما هي الطبيعة الحقيقية وما هي الاطماع الاقليمية لدولة اسرائيل .. ان الليرة القائم منذ « بيان الاستقلال » في ١٤ ايار لا زال كما هو .. ويبين لنا نص حديث الايديولوجية التي بروج لها في اوساط الرأي العام الاسرائيلي اساتذة الفكر الصهيوني .. فقد كتب الحاخام كور - وهو من اكثر الحاخامات نفوذا في اسرائيل - يقول في صحيفة يدعون احرنون في ٢٢ ايار الماضي :

« ان ارض اسرائيل بكل امتدادا اقليميا وجودها ملك لمجموع شعب اسرائيل ، الابدين اليهود في العالم اجمع . ولهذا فان اليهودية والسامرة والجولان وبيسان الموجودة في قلب ارض اسرائيل تنتمي لشعب اسرائيل (...) والحكومة الحالية .. ليست حكومة مجموع هذا الشعب ، وانما فحسب حكومة اولئك الذين يعيشون هنا « كرواد » للاخرين جميعا .. وليس من حق اولئك الذين يقطنون البلاد في هذه اللحظة ان يحدوا او يقيدوا وضع بننا على هذه الارض .. والحديث عن « تنازلات اقليمية » لغو لا معنى له برفض العقلاء الواعون بازدراء وسخط » .

ولقد توصل الرأي العام العالمي شيئا فشيئا الى اكتشاف على من تقع مسؤولية اعمال التمييز ضد العرب الذين يعيشون في اسرائيل ، وهي اعمال كثيرة ما كان يجهل حتى وجودها . وحتى اولئك الذين لا يهتمون ، لواقصتهم السياسية ، التشكك في الوجود القانوني لهذه الدولة ينبغي لهم على الاقل ان يتبينوا الدوافع التي تفسر امتناعها عن الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، ورفض الجلاء عن الاراضي العربية المحتلة . ولقد ساعدنا كثيرا في عملنا الايضاحي عدد من الشخصيات التي تندد - في اسرائيل ذاتها - بانديولوجية عنصرية تقوم على « حق سلفي » مزعوم يتساءل المرء أي هيئة قانونية دولية يمكن ان تاخذه فسي اعتبارها ... ان هذا الاستقلال السيه لعقيدة دينية عن « الاختيار » كتبرير لكسل عمليات الاغتصاب ، وسند لعبارة « خلاص ارض اسرائيل » الشهيرة ، يقضي الى حد التنديد بمجرد الاعتراف بالمساواة بين الناس - اليهود وغير اليهود - امام القانون الوطني والبلوي ، باعتباره من اختلاق فلسفة الايقار .

وتصف السيدة الوني عضو الكنيست ومؤسسة حركة الحقوق المدنية في صحيفة « يدعون احرنون » العمليات التي جرت في اب ١٩٧٤ قائلا :

« واليوم يوضح لي عدد من الاسئلة والشخصيات الدينية في بلادنا ان حماسي من اجل المساواة في الحقوق بين كل الناس هو نبرة فلسفة « انسانية » للايقار ، فلسفة مظلة تتعارض مع اليهودية .

الاستقلال ذو الطابع الاستيطاني إلى ظهور طبقة من الكولاد تحقق
أرباحا هائلة دور ان سترك اصعباً بفضل الاراضي المزروعة التي
اعطيت لها ، وأنعمال العرب الذين لم تنبثق لهم سوى ايديهم لزراعة
الارض التي اعطيت لآخرين . ويعبر الملقون الاسرائيليون الذين
لا يذهبون برؤية المزايما العاجلة لتوضع عن قلمهم بهذا الصدد.
وهكذا يقول بوغاز ايفرون في صحيفه « يدعوت احرونوت » في عددها
الصادر سي ٢٤ ايار ١٩٧٥ :

« .. لقد ادى استمرار الاحتلال إلى ظهور نظام شبه استعماري،
وطبقة من صفار الطفاة العاديين تفرح السكان الخاضعين .. ولا
يمكن لمثل هذا الوضع الا ان يولد الفساد . لقد قال لينكولن
انه لا يمكن لامة ان يئلف نصفها من العبيد ونصفها من الاحزان
ان الحرية لا تنقسم . وهكذا تحول الاحتلال الى سرطان ينخر
في جسمنا .. »

وزاد ايفرون انار هذا السرطان في الطريقة التي يعامل بها اول
السكان الفلسطينيين في الاراضي المحتلة ، ثم العرب في اسرائيل،
ثم اليهود الشرقيين والتي بدأ يعامل بها ذود الآراء الساخطة ..
وايسر هذا بالتناقض ضئيل الشأن بين الاتجاه الى صيغ النظام
بالصفة انفاشية - وهو امر يمشى مع طبيعة الامور والضرورة
التي يواجهها للإبقاء على صورة ذات طابع « ديمقراطي » في اعين
الراي العام العالمي ويهود التسنات ، وبوجه خاص اليهود الامريكين
وهم عموما من الليبراليين .

وثمة تناقض اخر يمكن ان تكون اثاره فائلة بالنسبة للدولة
الصهيونية هو تطور النسبة بين المهاجرين الى اسرائيل والمهاجرين
من اسرائيل . فالبقاء على الاحتلال والبقاء على حالة الحرب التي
ينضمها ، وميزانية الحرب الباهظة ، كل هذا ينعكس بشكل قاس
على مستوى المعيشة وحجم الواردات ، كما ينعكس في شكل خدمة
عسكرية الزامية تشل الحياة العائلية والمهنية لسكان البلاد
اليهود . ومن شأن كل هذه العوامل عدم تشجيع الهجرة الى اسرائيل
وتشجيع الهجرة منها ، وهي هجرة تضاعفت في السنوات الاخيرة الى
حد استطاع معه بيجين زعيم المعارضة اليمينية المتطرفة الحديث
عن « الزيف الرهيب » في حين تصف افتتاحيات الصحف هذا
الاتجاه بأنه « دراما سياسية وعار قومي » (يدعوت احرونوت في
٢٢ حزيران ١٩٧٦) .

ويشعر قادة اسرائيل بهذه الظاهرة بمزيد من الازارة لانها
تمس نسبة كبيرة من الشباب ومن اليهود الذين ينتمي اصلهم الى
الدول العربية ممن يبذلون عزمهم على العودة الى اوطانهم، وقد
وجهت مبادرة بعض الحكومات العربية - ومن بينها العراق - الى
عرض العودة على يهود السفارديم الى البلاد التي شاطروها طويلا
مصيرها وثقافتها لظمة قاسية الى صورة الدولة الصهيونية -
اللجا التي لا يمكن لليهود خارجها الا ان يكونوا ضحية للعداء
للسامية .

واخيرا اعتمد ان ثمة عنصرا جديدا كان له دور كبير في فتح
اعين المخلصين على طبيعة انولة الصهيونية وممارساتها العنصرية.
ولقد كانت مذكرة كوينج الشهيرة التي نشرنا ترجمتها الفرنسية
في نشرة « فرنسا - فلسطين » نوعا من النقد اللاتني للأساليب
التي استخدمت في اسرائيل حتى الان ازاء الاقلية العربية ، وقد
رأت في هذه الأساليب احد اسباب تصاعد النزعة القومية العربية
التي تخشى اثارها ، مقرونة بهذا التزايد السكاني السريع
للسكان العرب . وتمتد الاقتراحات التي تقدم بها واضح الوثيقة -
والعروضة حاليا على رئيس وزراء اسرائيل - شهادة بالفة على
الوان التمييز التي ادانها قرار الامم المتحدة .

وباسم هذه اليهودية سارس مند . ه عامفها جماعيا ضد من لا
ينمون الى أصل يهودي . ويعبر اسباب المنصب التي يدبسن
بالصهيونية الدينية سكان اليهودية والسمر « كلابا » ، ويصبرون
حقونهم في الاراضي والدور التي يقطنونها منذ مئات السنين
باطله متنافسة مع العهد الذي نفاها آباؤنا .. وهذا ما نمثله
اليهودية اليوم بالنسبة لكثير من الحاحامات وبعض الساسه
وعناسيهم ، ونحن نشهد عملية اثاره منظمه للشعب التي يجهل
مجرد وجود الشعب الفلسطيني وامانيه في أن يعبر عن نفسه بحريه .
ان حياضه وحقوقه ووجوده كمجموعة عرفيه عانت في هذه
المنطقه منذ فرون وعزمه على تحقيق هويه - بما يضمن السيادة
السياسية .. ان هذا كله يعامل بازدراء ..»

وهكذا نصل الى المنطقه الثالثة التي اثارها . لقد قدم
مسيحيو الغرب - بوغي او بغيروعي - سندا للايديولوجية والسياسه
الصهيونيتين بقراءتهم السري Fundamentalist للعهد القديم
وميلهم الى « تحقيق » العهد الابوي الذي يفهم ويفسر دون اي
سرد تاريخي . وسمح هذه الظاهرة بجلاء اكبر حسي الدوائس
النيروتسانتيه الاكثر بطلا بالكتاب المقدس (ويمكن ان نخامرنا في
هذا الصدد بعض المخاوف بالنسبة لشخصية الرئيس الامريكسي
انجيد) .

وينبغي ان نبدي ارتياحا لان بعض علماء اللاهوت المحدثين
يسمون الى « تبديد الاسطورة » عن هذه القراءة للنصوص ،
ويسمون بالزيف استغلالها في اغراض سياسية . وفي هذا الصدد
يقول عالم اللاهوت السويسري البير دي يوري في العدد الاخير من
المجلة ربع السنوية « دراسات لاهوتية ودينية » التي تصدر بالتعاون
مع المركز الوطني للبحث العلمي :

« وحتى لو شاطرنا اللاتاويليين معصماتهم حول حربية انوحى،
وحول الصحة التاريخية لكل فصص الكتاب المقدس ، حتى لو
قبلنا فرضيه السرمديه المطلقة نكل وعد الهي ، فلن نصل الى ان
سنخلص من النصوص معنى يدعنا الى ان نحدد بشكل ملموس
موقفنا السياسي في عالم اليوم .. ولا يمكن ان نلف باية طريقة
حول اولئك المسيحيين الذين يصبرون وعد العهد القديم اساسا
دانونيا للمطالب الاقليمية الحاليه لدولة اسرائيل » .

وفد يبدو هذا الموقف مجرد حد ادنى ، الا ان علينا ان نضمه
في اطار مسيحية غريبة تجد نفسها شريكة في احياء فكرة
لاله العدالة يخدم تميزا عنصريا .

ويمكن لجانب اخر من الوضع الراهن ان يوضح طبيعة
النظام الصهيوني : واد هنا ان نتحدث عن التناقضات التي تتطور
داخل المجتمع الاسرائيلي ، بحكم « سياسه ذاتها » .

وينبع احد هذه التناقضات من استقلال الاراضي العربية المحتلة.
وتمثل هذه الاراضي من ناحية مصدرا لارباح كبيرة بالنسبة للدولة
الصهيونية في شكل محاصيل زراعية وغيره باسعار زهيدة ، واسوافا
للمنتجات الاسرائيلية ، ومصدرا للابدي العاملة المهاجرة - اذ تحول
الفلاحون العرب الذين نزلت ملكيتهم الى عمال منخفضي الاجور،
محرومين من اية امكانية للتنظيم ومن الحقوق النقابية ، عمال
بالاجبر يمكن فصلهم اذا شاء صاحب العمل (وتلك ميزة لها
وونها بالنسبة لاقتصاد يعانى الكساد) ، ويعاونون الى حد دفع
احد الصحفيين الى ان يتحدث مؤخرا عن « اكواخ العم توم » التي
راها في اسرائيل .

غير ان هذا الاستقلال كان من ناحية اخرى عاملا مساعدا
على التدهور التدريجي لمجتمع كان يفخر بأنه يقوم على « العمل
اليهودي » والعمل المنزه عن الغرض للرواد .. لقد ادى هسندا